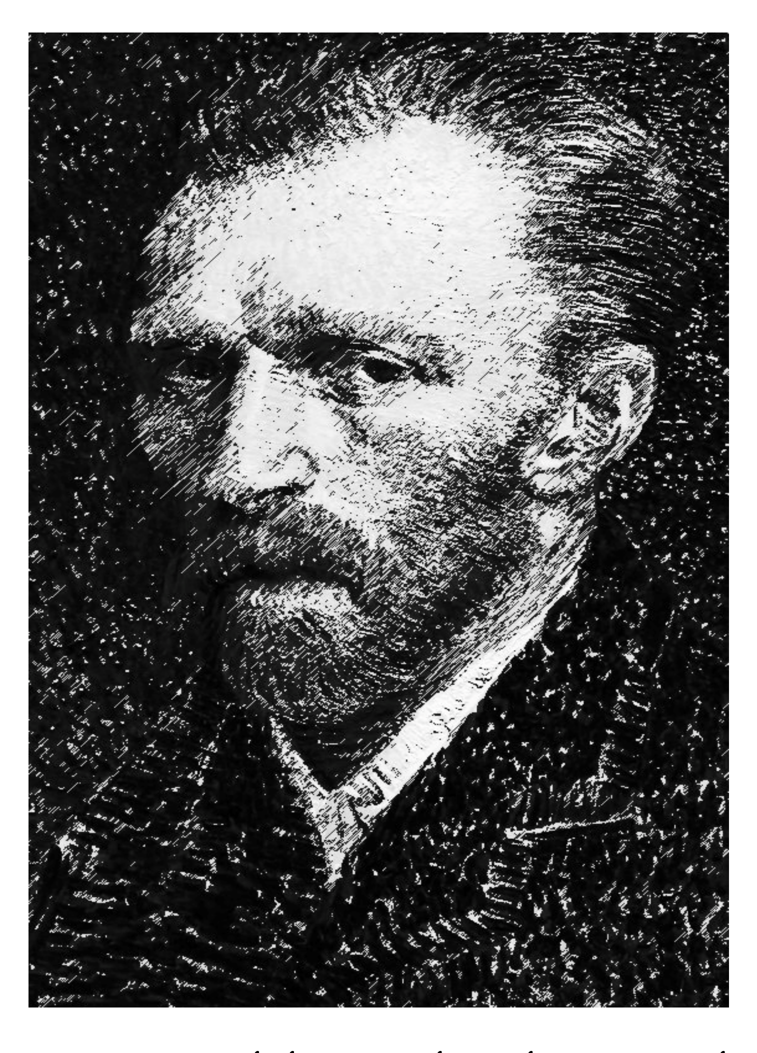
آلام فنسنت



"أتمنى لو يقبلوني كما أنا، إنني أحاول جاهدا أن أكون نفسي، ولا يهمني كثيرا هل يقبل الناس أم يرفضون ذلك"

فنسنت فان جوخ

آلام فنسنت

شوارع آرل تسكب أنفاسها الساكنة في جريان من الصمت، الهدوء يخيم على تلك اللحظات، يكاد يسمح للقلب أن يسمع خفقانه الداخلي، وربما، يكون هذا، هو الوقت الذي يختاره الفنانون للغوص في أعماقهم واستخراج ما يكمن هناك من إبداع.

كانت غرفتهما الصغيرة تقع في الطابق العلوي، حيث يطل زجاج النافذة على سحر المدينة القديمة وأزقتها الضيقة. في تلك الليلة، كانت الألوان تراقص اللوحات الفنية على الواقع، تتناغم مع النجوم البعيدة والنوافذ المضيئة. اللوحات التي تملأ الغرفة تشع بسحر لا يقاوم، فالألوان تتلاطم كالمشاعر البشرية، مختلطة ومتداخلة في لوحات تعكس عمق الروح وتعبيراتها.

فنسنت يقف متأملا لوحته ويقارن بينها وبين لوحة صديقة غوغان، كانت لوحة فنسنت تمثل كرسيًا خشبيًا بسيطًا من الأثاث الريفي مع مقعد مغطى بالقش، مما يبدو أنه يعكس شخصيته الصارمة فيما يتخيل له، على نقيض غوغان الذي رسم كرسيا مريحا بذراعين مع شمعة وكتابين أو روايتين، ما يشير إلى رجل يتمتع بوقت فراغ كبير نوعًا ما...

ولج غوغان للغرفة بينما كان فنسنت يضيف بعض التفاصيل في لوحته، وتأمل هو الآخر في لوحة فان جوخ، وظل يتأمل، يحك أعلى حاجبة، وينظر لفنسنت فان جوخ الذي من كثرة تركيزه لم ينتبه له حتى...

- هل انتبهت لوجودي؟ أنت منشغل كالعادة. قال غوغان.
- بلا انتبهت، لكن... تصل متأخرا في الفترة الأخيرة، هذه ليست عادتك، ما عدت كما كنت في السابق!

كانت علاقة غوغان وفنسنت قد توترت في الفترة الأخيرة بدرجة كبيرة، حتى ما عادا يكلمان بعضهما إلا فيما ندر، وكانا كليهما يشعران بذلك، لكن الكبرياء يحيل بينهما، من أن يتنازل كل أحد للآخر، رغم أن فنسنت قد تنازل سابقا بعض الشيء، لكن كان غوغان غير آبه به، وكأنه كره مساكنه فنسنت ومل منها.

وضع فنسنت الفرشاة جانبا، أطرق رأسه، ويبدو كأنه عادت به الذكريات بعض الشيء، الفروق الفنية، اختلاف التوجه بينه وبين صديقة غوغان، الكثير من الاختلافات.

- كم افتقدت صوتك ووجودك بجواري! همس فان جوخ بصوت خافت.
- أنا كذلك. أجاب غوغان بصوت تلثم الحنين. ثم أردف متسائلا: هل أنت تظن أن هذا العالم الغامض يمكن أن يكون مرآة لأفكارنا؟
- ما نحن إلا ذرات من ألوان مختلطة ببعضها البعض... أجاب فان وهو يحدق في سقف الغرفة.
- نحن رسامو الحياة، نخلق بألواننا ونعيش في لوحاتنا. أجاب غوغان بتأمل، وكأنما كان يتحدى ويناقض فكر فنسنت.

تراجعت ذكرياتهما إلى الوراء، حيث كانا يتبادلان الأفكار والأحلام في ليال من الحماسة والإلهام. لكن التوترات المستمرة واختلاف الرؤى الفنية جعلت الصداقة القديمة تتراجع وتبدأ في الانهيار.

- لماذا ترفض أن ترى الجمال بعينيَّ؟ سأل فان جوخ بتوتر تلبس الحزن، كأن غوغان كان لا يفهمه أو يخالفه.
- لست معترضا على رؤيتك للجمال، ولكن أساليبنا مختلفة. أنا أعتني بالتفاصيل والدقة، بينما أنت تصورها بلون زاه وفيضان من المشاعر. أجاب غوغان بتماسك وحفاظ على رؤيته.
- لكن هذا هو جمال الفن! أن تنقل المشاعر والعواطف بألوان وتشكيلات جريئة! هاجم فان جوخ.
- فنسنت! جمال الفن يكمن في التركيز والانضباط، لا في التفلسف والاضطراب النفسي! غوغان بغضب وجحوظ عينيه.

الألوان تخرج من اللوحات، بكافة مشاعر فنسنت، حلوها ومرها، سعادته وتعاسته، تحاول الدفاع عن فنسنت، الحديث بدلا عنه، لن يقدر على مجابهة غوغان، إنه ضعيف...

- أنت لا تفهم! هذا هو جمال الفن، أن ننقل نحن الرسامون الملاعين العالم بألوان مشاعرنا وتشكيلاتنا الجريئة. هاجم فان جوخ.

الألوان من حولهما تتلاطم، اشتعلت بالاحتقان، وبدأت تتلون بألوان غامضة، غير منسجمة، تبتعد، تضرب الجدران.

الوتر الأخير ينقطع... يلتف حبل الصمت في الغرفة.

- لا يجب أن نفقد الاحترام بيننا بسبب اختلاف أساليبنا، إن الاختلاف هو الذي يثري الفن. قال فنسنت بألم.
- أعلم ذلك، لكني لم أستطع الاستمرار في النقاشات المستمرة والمشاجرات. كنت أحاول الابتعاد لأجد السلام النفسي﴾، أوضح غوغان بصراحة طافحة.
- غوغـــ..
- أصمت! تعبت من بلاهتك! ما شأني برؤيتك الفنية، لا أريد منك شيئا سوى أن تـــ..
- بل أنت من تصمت! أنت تستهلكني! أشعر بأنني في وضع غير طبيعي حولك! انفجر فان جوخ بصراخ مكثّف، وحُرقة داخلية، يقاوم البكاء.
- ولكني أحاول فقط أن أكون أفضل وأحترم نفسي وفني! هاجم بهيجان.

الألوان تنهار وتتراكم على زوايا الغرفة الضيقة، الحبر في الجدران يتحول لدموع ملونة تراقبهما بجزن، اللوحات المخبئة تحت الأسرة تحاول فض النزاع، الفُرَش تهتز وتصدر أصوات غير مسموعة...

- إذن أخرج أنت وفنك من هنا! أنا لا أستطيع الاستمرار بهذا الصراع. قال فان جوخ وأخرج كل ما كان بداخله، رغم أن الفن لم يكن سببه، لكنه ربما اعتبره آخر ما كان يجمعهما.
- أنا أيضا، لقد بدأت أفقد الإلهام بسبب هذه العلاقة المعقدة، أجاب غوغان بصوت مكسور.

في لحظة انفصال المشاعر، قرر بول غوغان أن يترك غرفتهما المشتركة، يبتعد عن فان جوخ الغاضب. ترك المكان بخطوات ثقيلة، وراحت الألوان تتلاشى خلفه، كأنها تشكلت من دموعه.

لكن قلب فان جوخ كان ينبض بالألم والندم. لم يكن يملك سوى فرشاة الطلاء وصديقة غوغان، لذلك، حاول النهوض وراء بول غوغان في محاولة يائسة للتوصل لحل ما. وهتف رجاءً: انتظر! لا تذهب! أنا غير متزن وغاضب بشدة، لكنني لا أريد فقدانك، أنا لا أعلم كيف أعبر عن مشاعري فقط! يحاول الوقوف على قدميه واللحاق بغوغان.

لم يلتفت غوغان لكلمات فنسنت، واستمر في طريقة بخطوات عجلة نحو الخارج، وجلس فنسنت مصدوما مما فعل، وفي لحظة الإحباط نظر من حوله، وشعر بالفراغ يملأ قلبه كما كان سابقا.

مضت تلك اللحظات ببطء، الضباب البارد ينبعث من أرصفة الأزقة، فينشر عبق رائحته المعروفة، ويظهر الليل بمظهر اكتسى بالسكون والصمت، ولا شيء فيه، سوى الحانة المضيئة على بعد مد البصر والنور الخارج منها، كشمعة تضيء

ظلام الشوارع فتظهر ملامح آرل لغوغان، وتجعله يمشي على الأقل في منطقة مرصوفة ونظيفة، المنازل تطالعه، وكأنها توبخه بصرير جدرانها، عيون نوافذها تلمع في الظلام، فتستر نظر الشارع عما بداخلها، وتحيل للرجل الماشي وحيدا للتفكر فيما فعله...

- كيف تركته وحيدا؟ تردد صوت اللوم في عقل غوغان: هل لأنني لم أكن قادرا على مشاركة ألمه؟

وضل يفكر ويمسح شاربه، ينظر في مرآه الروح، يستجوب نفسه: هل يجب أن يدفع الإبداع ثمنا باهظا؟ لقد حكى لي بكل وضوح عن حاجته لي ولِدَعمي، لكني أغفلت ذلك وتناسيته، تركته ينزف بصمت! وجه فنسنت يلوح في شوارع آرل، على زجاج المنازل، يسرع في مشيته! يهرول! يركض! تسري مشاعر الذنب والتوبيخ في نفس غوغان، ثم وقف حين تعب...

خطوات! صدى خفيف لخطوات متموجة على سطح الليل، تتزايد في وتيرتها، تنمو وتتعاظم مع اقترابها، نقرات متكررة، لضمائر مشتتة، أهداف، قذف ما خبي، شكوك غوغان تنبهه، وهم أم حقيقة! ضربات قلبه تتسارع، سألتف، من هذا؟ الآن!

أنفاسه المتقاطعة، بدأت تبزغ رؤية مرعبة، فنسنت فان جوخ! وجه شاحب، شبح! عينيه غارقتين في الظلمة، جلده ملتصق بوجدانه المضطرب، وخطواته تبدو كهمسات مخيفة، لهاثه الشديد! كأنه يجمع شتات نفسه المتفككة، الكلمات تتدفق من فم فنسنت بشكل عشوائي، مزيج من الإيماءات والصرخات

والعبارات المشوشة، أرواح محطمة وضائعة في هذا الجسد الهزيل! يحمل بيده المرتعشة، سكينا! سكين مطبخهم! الذي تناوبا على العمل عليه، طوال الفترة الماضية، ماذا سيفعل؟ سيقتل؟ غوغان! نفسه! الليل الذي يراقبهما! أم المنازل الصامتة؟

انعكست عيون غوغان الصاخبة من الرعب والدهشة، كان الزمان يتمدد ويتقلص كموجات شاطئ ملتوي، تجاوبت أنفاسه مع تردد الخطوات، فنسنت يقترب! غوغان يتراجع للخلف! يمسك السكين بشدة، تتوقف الرعشة! غوغان يبتلع لسانه! الليل يراقب!

- لم أكن أقصد ما قلت! أعتذر يا فنسنت! هتف غوغان خائفا.

فنسنت يتقدم! غوغان يسقط أرضا! يقترب فنسنت! وجها لوجه! الروحان تتلاصقان، أحدهما ستذهب الآن! ثم في غمضة عين، حين أغمض الليل قمره، وغطى شعره عينه، سقط السكين من بين يدي فان جوخ! لا شيء حدث! علامات الصرع تبدو على فنسنت، وغوغان تجمد في مكانه! ثم فر فنسنت تجاه المنزل، وحضنته شوارع آرل، ونام الليل، وأغمضت النجوم، حتى المنازل، كانت تعلم أن فنسنت لم يكن يقدر على ذلك!

***

كانت هالة فنسنت تظلم المكان من حوله، فرغم أن المصباح يشع الغرفة، إلا أن فنسنت كان يرى الدنيا بلونٍ أسود، تمشى في الغرفة بخطوات ثقيلة، كالأموات!

الجدران الرمادية كأنها تستنفر الظلال لتجمعها حوله، وبينما فنسنت يحاول ابتلاع لسانه، تخرج الكلمات من فمه غاضبة لمصيره: لماذا؟

لماذا أنا هنا؟ لماذا الجنون يلاحقني بلا رحمة؟ لا يجد جوابا، ينظر للوحته، يصرخ في الغرفة: إنه اللون! اللون الذي يدفعني نحو الهاوية! لماذا لا أستطيع السيطرة عليه؟ غاص في لوحته، يشتم اللوحة: بلهاء! فاشلة! بلا معنى!

أمسك اللوحة بعنف، وجعلها تحتضن الجدار، تسقط أرضا، وتنسحب هربا تحت السرير، يرمي الفراش، يسكب الألوان في الأرض، يركل المقاعد، يصرخ بصوت مكسور، ناظرا للسقف: لماذا لا أستطيع الخروج من هذه الزاوية المظلمة؟ أمسك رأسه ويحاول نتف شعره الأشقر، تسقط بعض الشعيرات فتعكس لون خصلاته الذهبية، وترقص روحه في وتر حزين على أنغام دموعه، بكى فنسنت، كما يبكي الطفل، ممددا على الأرض، يحتضن نفسه، تهمر الدموع من عينيه، ويهرب المخاط من أنفه، يمسحه بكم معطفه، ويبكي كما يبكي في ليالي عذابه، الذكريات تحيط به، ثيو! أمه! المزرعة! الخوف يتملكه! الصرع! ينادي ويصرخ مستنجدا: أواه يا ثيو! أين أنت؟ هذه الدنيا تقتلني! سئمت منها!

- تريد الخلاص منها؟ صوت ثقيل في الغرفة.
- نعم خلصني منها! أجاب فنسنت، ثم فكر: من الذي أجاب؟ هتف: من هنا؟ من في الغرفة؟ يلتف حول نفسه! يخاف!
- هنا يا فنسنت، أنا هنا. فوق طاولة الطعام، جلس ثيو بشكله الذي عهده عليه فنسنت.
- ثيو! وانطلق فنسنت يعانقه.

لكن... اصطدم فنسنت بطاولة الطعام! أين ثيو؟ فتح فنسنت عينيه بعد صدمته: ثيو!

- خلفك! التف له فنسنت. ثم أكمل: اسمعني يا فنسنت، أنت الآن في حاجة، وأنا لست في حاجة لك، أليس كذلك؟
- تقريبا، لكن ما شأن ذلك؟ حدثني عما حدث معك في الـــ...
- أترك ذاك جانبا، يا فان، ما رأيك في حالك؟ كنت تتأوه قبل قليل لحالتك البائسة، هل تريد الخلاص منها؟
- نعم، أريد الخلاص منها.
- بسيطة، بسيطة جدا يا أخي العزيز، تفضل. ومد ثيو يده نحو فنسنت، وهو يحمل بيده شفره حلاقة.
- ماذا تريد؟ ما سأفعل بها؟
- لا شيء، فقط اقتص ممن تريد الخلاص منه، غوغان؟ صاحبة الحانة؟ أي أحد! فقط جرح صغير، وسأحقق لك ما تريد!
- لا، أنت لا تعرف شيئا يا ثيو أنـــ...
- أعلم ما تخفيه خلف اللوحات والألوان، ما تحاول الهروب منه بين اللوحات والفرش. أنا هنا لأجعلك تواجه ذاتك، الجزء الداكن الذي تنكره!
- لا، لست أنت ثيو، لست أنت، ابتعد عني! فنسنت غاضب، ليس هذا هو ثيو!
- لكنك لن تصل لما تريده من الإبداع!

- لم أعد أريد الإبداع! لا أريد أن أعيش حسب ما تريد! فنسنت بجزم.
- الفرح؟ الأمل؟ تلك الألوان الزاهية التي تعمي العيون عن رؤية الحقيقة. الإبداع يولد من تجارب الظلام ورحلات النفس إلى أعماق البؤس، نحو الجحيم! هل تجرؤ على التجول في ذلك العالم؟
- لا أحد يجرؤ، من تكون؟ لست ثيو! وبدأ الخوف يدب في قلب فنسنت.
- ومن قال ثيو؟ هذا ما تريده أنت فقط، لست ثيو! واختفى!

جرى فنسنت نحو باب الغرفة، وأحكم إغلاقه، وصرخ بخوف: من تكون يا ملعون؟ أين أنت؟ تريد تدميري! أنا لست سهلا! وسرت نسمه رياح اطفأت سراج الغرفة! واعترى الجو البارد أجواء الغرفة، أحكم إغلاق الستائر، واستند على الجدار، ونفث أنفاسه المضطربة، وتنفس الصعداء أخيرا، الصمت حول المكان، يبدو أنها خيالات لا غير.

- كما قلت لك سابقا، لا أريد منك شيء يا فنسنت. وانسدلت الستائر، وفتحت النافذة.
- شيطان! صرخ فنسنت خائفا.

كان الشيطان رجلا في أواخر العمر، شعره أبيض أشعث، يرتدي بزة بيضاء نظيفة، ووجهه شديد الحمرة، وعينيه يخرج منها بعض الشرار، لكن يده... حافر! حوافر ماعز! مد حافره، نحو فنسنت... نظر فنسنت للحافر، تحولت ليد طبيعية، مد فنسنت يده... سحب الشيطان يده قبل أن يصافحه، ثم أردف: كما قلت لك، كيف أقولها؟ أنظر يا فنسنت، يمكنك أن تعتبرني جانبك الداخلي،

الظل المختفي الذي ينتظر ليمزق الستار عن أسرارك، أجاب الشيطان بنبرة ضاحكة.

- لا لن أفعل! أجاب فنسنت، ويبدو أنه قد تعب من كل هذا.
- ستؤذي نفسك يا فنسنت، لن تتحمل الجنون!
- بلا، لا شأن لك، لن أضع يدي في يدك!

ضحك الشيطان عاليا، ومسح دموع ضحكه وقال: وقبل قليل؟ ألم تكن ستصافحني؟ وأكمل ضحكا. غضب فنسنت، وصاح في وجهه: قلت لك ما تريد؟ سئمت من هذه الأفعال الصبيانية!

- ألن تصافحني؟ تماشيني؟ نكون أنا وأنت جسدا وروحا واحدة؟ ومد الشيطان يده.
- انقلع من وجهي يا ملعون! قال بغضب شديد.
- إذن فتحمل عواقب أفعالك.

وبدأ يرقص أمامه، يتمايل، يصرخ وينادي:

أيها الشفق! يا رمد السماء!

لتبلعك الأحزان والدموع!

نحو الجحيم نذهب، ومنها نخرج!

يا نجوم السماء! يا أبناء الهواء!

وانفجرت الغرفة حول فنسنت بصرخات مخيفة، النوافذ تفتح وتغلق بسرعة، الأدراج تتكسر، اللوحات تخرج وتطير من تحت الأسرة، لوحة الكرسي واقفة أمامه، يخرج الكرسي منها! يتهشم أمامه! الشيطان يختفي! يبقى فنسنت في هذه الفوضى! الخوف والفزع شعوره.

يمسك إذنيه، يغلقهما، الشيطان يعود، أمامه! تتحول عينيه للسواد، وجهه، كل جسمه، يذوب أمامه، كتله من السواد اللزج، تقترب نحوه، يهرب فنسنت، يبتعد عن السواد، يمسك بظله، السواد يلتهمه، يتسلق قدميه! وسطه! صدره! السواد يحيط بفنسنت، يصرخ: ابتعد أيها اللعين، أواه يا ثيو! أين أنت؟ السواد يلتف حول رأسه، يرى نفسه في المرآة، السواد حولها، فوق جبهته، ينتقل جانبا، أذنه! يدخل لإذنه! السواد يدخل بسرعة! فنسنت يصرخ! يشتم! يلعن نفسه! أواه عليه!

صرخ خائفا: اذهب يا لعين! يضرب أذنه بيده، يخربشها بأظافره المقلمة! يدخل الفرشاة فيها، السواد ما زال في أذنه، الأصوات المزعجة لا تسكت، صراخ! أنين! بكاء! يصرخ فنسنت! يبكي! لا يقدر، يجب أن يتخلص من هذا العذاب، كيف؟ لا شيء حوله.

***

شفرة! تلمع! خفيفة! حادة! لن يشعر بالألم! حركة واحدة فقط، سيذهب كل هذا! أمسك بها، صورته تنعكس عليها، انعكاس شبح، من هذا؟ حالته صعبة! يستعد!

واحد!

اثنان!

ثلاثة!

وحينها، هدأت الأصوات من حوله، كانت الغرفة نظيفة كما هي عادتها! لم يتغير فيها شيء، الطاولة، الفرش، اللوحات المخبأة، كل شيء مكانه، فنسنت يقف صامتا، ماذا جرى؟ ينظر ليديه، حمراء! ما هذا؟ شيء يرتطم بالأرض، يلتقطه، أذُنٌ مقطوعة!

أذن من؟ المرآة أمامه، ينظر لأذنه، سليمة! الأخرى؟ الدماء! تحيط بها، وجهه بالكامل! لقد أصبح ما لم يرد أن يكونه! الحرارة عالية، شعور بالدوار ينتابه، غثيان، الألوان من حوله تزداد سوادا، المصباح المضيء، ألوانه تختلف، أحمر! برتقالي! أصفر! أخضر! يبتعد قليلا، يغمض فنسنت عينيه، أزرق، كحلي! أين فنسنت؟ ماذا يجري؟

- فنسنت! فنسنت! صوتٌ ينادي.
- من؟
- أنا أخوك، ثيو!
- أين؟
- افتح عينيك!
- لا أقدر!
- حاول!

- لا أقدر، يبدو أنيّ ذاهب!
- أين؟
- هناك! بعيدًا!
- أين؟
- بعيدًا هناك... سأغادر.. نحو الربيع!

العرق يتصبب منه، الدماء تسيل من أذنه، تتحرك نحو شقوق الأرض، الظلمة تبتلعه، الصمت يخيم على المكان، الباب يفتح، غوغان يدخل! يصرخ مفزوعا: فنسنت! فنسنت! ماذا جرى؟

فنسنت نائم الآن. يركض غوغان نحو الحانة، ويبقى فنسنت وحيدا، في الظلمة، بائسا، لا شيء يريده، سوى نفسه، وفرشاته، بعض الاهتمام! فقط... الاهتمام وحدة!

تمنى لو أن أحدا فهم ذلك...

لكن لا أحد...